# نفطٌ... وأشياءُ أخرى

شبات نايف ❖

أكملتُ صلاةَ الفجر على عجل، وبدّلتُ ملابسي، وتناولتُ خمسةَ جالوناتٍ بلاستيكيّةٍ فارغة كنتُ قد ربطتُها بعضَها ببعضٍ منذ البارحة، سَعةُ الواحدِ منها عشرون ليترًا.

خرجتُ من داري قبل طلوع الشمس، لأبْلغَ محطّةَ الوقود قبل أنْ يزدحمَ الناس، علّي أحصل على حصّة الأُسرة الشهريّة من الكيروسين، المائة ليتر، بعدما فشلتُ ليومين متتاليين في ذلك.

كنتُ أتمتم آياتٍ قرآنيّةً لأبدّدَ ما ملأ نفسي من خوف ورعب، ولأُبعدَ أفكارًا سوداء تغزو رأسي بأسئلةٍ راعبةٍ من نوع: ماذا لو واجهتني كلابٌ مسعورةٌ كما حدث لجارتي الشابّة، ساهرة، في الأسبوع الماضي؟ كانت ساهرة قد خرجتْ إلى عملها في الصباح، فإذا بمجموعة كلابٍ تهاجمها؛ وعندما حاولتْ رميَها بحجر لإبعادِها، طرحَتْها تلك أرضًا وراحت تعضّ أجزاءً من جسدها. ولو لم يمرّ أحدُ الجيران فينقذها من تلك الأنياب، ما كنّا لنعرفَ ما سيحصل لها. لقد استسلمتِ الشابّةُ لأنيابٍ نهشتْ في لحوم المقتولين غدرًا، المرميّين في زبالتنا، فتوحّشتْ.

- يا إلهي. كُن معي!

ما إنْ بلغتُ الطريق العامّ حتى فوجئتُ برتل دبّاباتٍ أمريكيّ يتقدّم باتّجاه محطّة الوقود. وكان أحدُ جنود الدبّابة الأولى يُلقي بين الحين والآخر أنبوبًا فوسفوريّاً مضيئًا يهْدي بضوئه باقي الرتل إلى الاتّجاه المطلوب.

كانت المحطّة تبعد عن داري نحو كيلومترين، ولا مواصلات في هذا الوقت المبكّر. حثثتُ السيرَ لأصلَ في وقتٍ مناسب، فلا أكونَ في نهاية الطابور كما حدث في اليومين السابقين، إذ نفدتِ الكميّةُ قبلَ أن أبلغَ المحطّة. وعندما وصلتُ وجدتُها مطوّقةً بالدبّابات الأمريكيّة، وبينها جموعٌ من النساء والرجال انتظموا في صفّين متقابلين أمام البوّابة الرئيسة.

أخذتُ مكاني، بصمتٍ، وراء آخر امرأة. ألقَيتُ عليها تحيّةَ الصباح فردّت مبتسمةً، وسألتني:

- وحدَكِ؟

- نعم.

- أتسكنين في هذا الحيّ؟

- قريبًا من هنا... في منطقة العامريّة. وأنتِ مَن معكِ؟ ومن أين جئتِ؟

- معي قريباتي وجاراتي. وقد جئنا من قرية أبو غريب المجاورة لمنطقتكم.

- ومتى خرجتنّ من بيوتكنّ؟

- مساءَ البارحة، قبل منع التجوّل.

دُهشتُ من كلامها وسألتُها:

- هل قضيتُنّ ليلتكنّ واقفاتٍ هنا؟

قالت ضاحكةً:

- طبعًا لا، لقد نِمنا على الرصيف.

قلتُ باستنكار:

- ألا تخفْنَ؟

قالت جازمةً:

---

❖ - كاتبة من العراق.

ـ لا يوجد ما نخاف منه.

أدارت رأسَها إلى الأمام وربّتَتْ على كتف المرأة التي أمامها، وسمعتُها تقول لها:

ـ هذه المرأة تسألني إن كنّا نخاف.

أَطلقَتِ الثانيةُ ضحكةً عاليةً، وقالت:

ـ قولي لها نحن نخيف ولا نخاف!

لم أعلّقْ على كلامهما بشيء، بل أخذتني أفكاري بعيدًا. فبعد سنواتٍ من الاحتلال والوعود، ها نحن نقف بانتظار نفطٍ من المحطّة، وهو من تحت نعالنا يَنْبع! نَسمع عن منع باعة النفط المتجوّلين، بل عن قتل بعضهم بشبهةٍ وبلا شبهة. لقد مرّ شتاءُ السنة الماضية كما لم يمرّ علينا شتاءٌ مثلُه، وعانت العوائلُ وطأةَ البرد، ومات كثيرون من دون أن يجدوا ما يتدفّأون به، وارتفع سعرُ ليتر الكيروسين أضعافَ ما كان عليه قبل الاحتلال. وها أنا، ومعي آلافُ المواطنين في محطّاتٍ أخرى، نقف في طوابيرَ طويلةٍ، في الصيف، للحصول على حصّتنا الشهريّة من الكيروسين، نخزّنه استعدادًا للشتاء القادم .

التفتت المرأةُ ثانيةً وسألتني:

ـ لماذا جئتِ وحدَكِ؟ وكيف ستحملين هذه الجالونات حين تُملأ؟

ـ سأستعين بالآخرين، وسيساعدني أصحابُ النخوة والشهامة.

ـ وما لكِ وهذا التعب؟ ادفعي شيئًا لمن يَقْدِر على إنجاز المهمة، يجلبْ لكِ حصّتَكِ وأنتِ مرتاحة.

ابتسمتُ بمرارة، وأجبتُ بما كان يعزُّ عليّ سابقًا الجهرُ به:

ـ مورديِ الماليّ الوحيد هو راتبي التقاعديّ، ولا يكاد يسدُّ حاجاتِ المعيشة الضروريّة.

صمتتْ قليلاً وبانَ على ملامحها الأسى والشفقة، ثم قالت:

ـ أعطيني عنوانَ بيتكِ وسأقوم بهذه المهمّة بلا مقابل.

شكرتُها بلطف، واعتذرتُ عن قبول عرضِها. وراعني أنّني، في قرارة نفسي، كنتُ أرجو منها أن تكرّر عرضَها المغري، أن تُصرّ، فيصلَ الكيروسين إلى المنزل، وأضمنَ الدفءَ لأولادي من جديد، ولو لشهرٍ واحدٍ من شتاءٍ طويل.

لكنّها مطّت شفتيها ولم تقل شيئًا، بل أسرعتْ تلبّي نداءَ إحداهنّ لتناول الفطور. قالت:

ـ سأتركُ هذه القناني تحت نظرِكِ. لا تَدَعي أحدًا يحرّكها، واحفظي لي دوري في الطابور.

ـ اطمئنّي، فأنتِ دائمًا أمامي.

التفَتُّ ورائي، فإذا بأعداد النساء خلفي قد تضاعفتْ، وامتدّ الطابورُ يسابق ظلالَ شروق الشمس.

عادت المرأةُ تحمل قطعةَ خبز وبداخلها وريْقاتٌ من «المعدنوس» وقطعة صغيرة من الجُبن. قدّمتْها إليَّ قائلةً:

ـ لا بدّ أنّكِ لم تتناولي فطورَكِ. لقد جئتُكِ بلقمةٍ تساعدكِ على مقاومة الجوع.

دفعتُ يدَها بلطفٍ، وشكرتُها، ولم آخذ منها شيئًا. فاحتجّت بامتعاض:

ـ لماذا؟ سيّارة الكيروسين لن تأتيَ قبل الظهر، وسوف تشتدّ علينا شمسُ حزيران، وما لم تأكلي شيئًا فلن تستطيعي الوقوفَ على قدميك.

وقد كانت على حقّ. أخذتُ الخبزَ منها. كنتُ قد نسيتُ معاناتي في اليومين الفائتين. كانت الشمس تتعامد فوق الرؤوس، والأيدي تبحث عن فجوةٍ منسيّةٍ في أغطية الرأس لتسدّها فتمنعَ تسرّبَ تلك القوّة الجبّارة التي تنزل علينا من السماء. كنّا نقف مرتجفين تحت ضوء

شمس حزيران الباهر، يحيط بنا الأميركيّون بنظّاراتهم السوداء وحركاتِهم اللامبالية بنا. تنتفخ الجالوناتُ التي نحملها، فنفتحُها بين الفينة والفينة لتنفِّس هواءها المشبعَ بالنفط.

بعد نصف ساعة خرجَت المرأةُ ثانيةً من الطابور، وعادت بعد قليل لتعلن بصوتٍ عالٍ:

ـ ستتأخّر سيّارةُ الكيروسين هذا اليوم. الطريق إلى مصفى الدُورة مقفلةٌ ومطوّقةٌ بالدبّابات الأمريكيّة.

سألتُها:

ـ ومن أين لكِ بهذه المعلومات؟

ضحكتْ:

ـ تنصّتُّ إلى حديثٍ بين عمّال المحطّة قرب السياج هناك (وأشارت إلى سياجٍ مكسورٍ في جزءٍ منه).

غرقتُ في أفكاري. طريق مصفى الدُورة أقفلها الأميركيّون إذًا. هل نستطيع أن نعرف لماذا؟ ربّما أسأل الأميركيّين هنا حولنا، أو ربّما الذين لاقيتهم في الطريق، أو الذين... ماذا يفعل كلُّ أولئك الأميركيّين هنا؟ أفكاري لا تنضبط، أدردش مع المرأة، أقتلُ الوقتَ الذي يقتلنا في انتظار الكيروسين:

ـ متزوّجة؟

ـ نعم... ولديّ ثمانيةُ أطفال.

بدَت لي أنّها لم تتجاوز الخامسةَ والثلاثين. قلت:

ـ ما شاء الله! وزوجُكِ؟ أين هو؟

ـ في السجن لدى الأمريكان منذ ثلاث سنوات.

ـ لماذا؟

قطّبتْ حاجبيها ولم تقلْ شيئًا. أغلبُ الظنّ أنّها لا تعرف... أو لا يعنيها أن تعرف لماذا يَعتقل رجالٌ، قدِموا من آلاف الكيلومترات، زوجَها المولودَ هنا.

ـ وماذا كان يعمل زوجُكِ؟

ـ عامل بناء.

ـ أبناؤك كبار؟ أقصد لا بدّ أنّهم يعملون بدلاً من والدهم.

ـ أكبرُهم مصطفى، في العشرين من عمره، وقد تزوّج من ابنة عمّه قبل أشهرٍ قليلة، وهي الآن تدير البيتَ وتقوم بالأعمال المنزليّة. وأنا هنا، كما ترين، أجيء كلّ يومٍ وأقف في الطابور ساعاتٍ طويلة.

قلتُ متعجّبةً:

ـ كلّ يوم؟!

ـ ليس لأسرتي فقط، بل لكثيرين أمثالك لا يتحمّلون هذا العناء، ولديهم ما يدفعون لي لقاء خدمتي هذه. الحياةُ صعبةٌ من دون ربّ الأسرة.

ابتسمتُ، وقلتُ مازحة:

ـ ألا ترَين أنّ هذه تجارة، وأنتِ تاجرة الآن؟

ضحكتْ وقالت وهي تشير إلى قدميها العاريتين:

ـ نعم، تاجرة نفط حافية!

اعتصر قلبي الألمُ وأنا أتأمّل ملامحَ وجهها المترب والمتعب. ها أنا أقف، إذًا، مع جزءٍ من آلة تجارة النفط، جزءٍ حافٍ لديه ثمانيةُ أبناء يُطْعمهم؛ بل قد صاروا تسعة: فلقد تزوّج مصطفى. لماذا تزوّج مصطفى وأبوه في السجن؟ لماذا لم ينتظر خروجَه؟ لكنْ متى يخرج أبوه؟ هذه الشمس تلهب أفكاري.

قلت لها:

ـ عافاكِ اللهُ وأرجو أن لا تكوني قد زعلتِ من حديثي.

ـ ولماذا أزعل؟ لم تقولي إلاّ ما يقوله الكثيرون من أنّنا نتسبّب بالأزمة. لكنْ هل وقفْنا يومًا من أجل الحصول على النفط قبل مجيء هؤلاء؟ أين يذهب النفط؟ متى يشبعون منه؟

ـ أتجنين ربحًا وفيرًا؟

ـ ليس وفيرًا ولكنه مُرْضٍ، أسدُّ به حاجاتِ البيت ومطالبَ الأولاد التي لا تنتهي.

❖ ❖ ❖

ارتفعتْ حرارةُ الشمس، واشتدّتِ الحاجةُ إلى الماء، وراحَ بعضُ الواقفين يَطْرقون أبوابَ البيوت المجاورة. بعضُهم يفتح البابَ ويُرشد العطاشى إلى مياه الحدائق. والبعضُ الآخر لا يجيب؛ فقد ملّوا، كما يبدو، من كثرة الطَّرْق والطارقين.

لم أتحرّكْ من مكاني. لساني صار تمرًا غيرَ ناضج، يَسْحب ما تبقّى من رطوبة في فمي. ظلالُ الشمس تقْصر أكثرَ فأكثر، ورحمتُها تقلّ، لكنّني بقيتُ مصمّمةً على تحمّل العطش والجهْد هذه. من ناحيةٍ أخرى كانت تؤرّقني فكرةُ أنّني أقف تحت الشمس هذه لأحصل على... وقودٍ تدفئة. أيُّ زمنٍ غريب!

جلستْ محدّثَتي على الأرض مع قريباتها، وأخذتْهنّ أحاديثُهنّ العائليّة. وكنّ بين الحين والآخر يرسلْن إحداهنّ إلى داخل المحطّة، فتعود بكلمةٍ واحدة:

ـ أكو [يوجد].

كان واضحًا أنّ المرأة على معرفةٍ بأحد عمّال المحطّة. سألتُ أمّ مصطفى عن ذلك، فأجابتني بلامبالاة:

ـ ولدُها عاملٌ هنا منذ أن اعتقلوا زوجَها. (وأضافت) كلُّهم أولادُنا.

إنّها امرأةٌ أخرى تتحمّل مشاقّ الحياة في غياب زوجها. لا ليس غيابًا، بل سرقة! كلّما تذكّرتُ كيف خلعوا البابَ، ودخلوا صحنَ الدار، وكيف شدّوا زوجي من ثوبه، وأقحموا رأسَه في كيسٍ أسود؛ كلّما تذكّرتُ ابني الكبير يبلّل فراشَه منذ اليوم الذي وَضع العسكريُّ الأميركيُّ البندقيّةَ في رأسه؛ كلّما تذكّرتُ حياتَنا التي انقلبتْ على أيدي رجالٍ كنّا نراهم في الأفلام التي تبثّها تلفزيوناتُ الدول المجاورة؛ كلّما تذكّرتُ صورًا من كلّ ذلك، أشعر بحرقةٍ، بغضبٍ، بحزنٍ على حياةٍ كنّا نستحقّ أفضلَ منها.

❖ ❖ ❖

قارَبَ الوقتُ منتصفَ النهار، وفُتح بابُ المحطّة، فانقطعتِ الصورُ في ذهني. أَبْشَرَ الواقفون خيرًا، وانتظموا في صفوفهم. لكنّ مديرَ المحطّة أطلّ عليهم قائلاً:

ـ آسفون يا جماعة، لن تصلَ سيّارةُ الكيروسون هذا اليوم. لقد قتلَ مجهولون سائقَها وسرقوها.

**بغداد**